استلاب الهوية عند أحمد بخيت

Identity Seizure by Ahmed Bakheet

سارة محمود محمد صالح
مدرس مساعد
د. غانم صالح الحمداني
أستاذ
جامعة الموصل ـ كلية التربية للعلوم الانسانية- قسم اللغة العربية

Sarah Mahmood Mohammed Saleh
assistant teacher
Dr. Ghanem Saleh Al-Hamdani
Professor
University of Mosul - College of Education for Human Sciences - Department of Arabic Language

mailto:iman.22arp25@student.uomosul.edu.iq

تاريخ الاستلام ٢٠٢٤/٠٢/٢١ تاريخ القبول ٢٠٢٤/٠٣/١٠

الكلمات المفتاحية: هوية، أحمد بخيت، استلاب، أدب، تحليل

Keywords: Identity, Ahmed Bakheet, Appropriation, Literature, Analys

الملخص

يتناول هذا البحث استلاب الهوية عند أحمد بخيت، حيث يسلط الضوء على التأثيرات الثقافية والاجتماعية التي شكلت هويته وأدت إلى تطورها، يقوم البحث بتحليل أعمال بخيت ومقارنتها مع تجاربه الشخصية والثقافية، مما يسلط الضوء على عوامل تأثيرها على مضامين أعماله الأدبية، يتناول البحث كذلك العلاقة بين هوية الكاتب والسياق الثقافي والاجتماعي الذي نشأ فيه، مما يعمق فهمنا لمدى تأثير هذه العوامل في نقده الاجتماعي ومواضيع أعماله، كما يقدم البحث تحليلات نقدية مفصلة لمفاهيم الهوية والانتماء في أعمال بخيت، أحمد بخيت، كمؤلِّف مصري بارز، يعكس في أعماله تجربته الشخصية والثقافية وروح الشعر العربي المعاصر، ويسلِّط الضوء على القضايا الاجتماعية، تتجلى هويته من خلال تناوله قضايا مثل الهوية الوطنية، والهجرة، والمجتمع، والسلطة، والفقراء، يعتمد بخيت في كتابته على خلفيته الثقافية المتنوعة، حيث يجمع بين التراث العربي والعالمي ويقدم رؤية فريدة وعميقة للتحولات الاجتماعية والثقافية في مصر والعالم العربي، مما يسلط الضوء على التوترات والتحولات التي يمر بها الفرد في بحثه عن هويته، بشكل عام، يقدم هذا البحث رؤية شاملة لعوامل تشكيل هوية أحمد بخيت ككاتب وشخصية، وكيفية تأثيرها على أعماله الأدبية وتفاعلها مع المجتمع والثقافة المحيطة.

Abstract

This research explores identity formation in the works of Ahmed Bakheet, shedding light on the cultural and social influences that have shaped and evolved his identity. It analyzes Bakheet's works in comparison with his personal and cultural experiences, highlighting the factors that impact the themes of his literary works. Additionally, it delves into the relationship between the author's identity and the cultural and social context in which he grew up, deepening our understanding of how these factors influence his social critique and the subjects of his works. The research also provides detailed critical analyses of the concepts of identity and belonging in Bakheet's works. Ahmed Bakheet, a prominent Egyptian author, reflects his personal and cultural experiences and the spirit of contemporary Arabic poetry in his works. He addresses social issues such as national identity, migration, society, power, and poverty. Bakheet draws on his diverse cultural background, merging Arab and global heritage to offer a unique and profound perspective on the social and cultural transformations in Egypt and the Arab world. This sheds light on the tensions and transformations individuals undergo in their search for identity. Overall, this research provides a comprehensive view of the factors shaping Ahmed Bakheet's identity as a writer and a personality, and how they influence his literary works and interaction with the surrounding society and culture.

استلاب الهوية عند أحمد بخيت

إنّ حالة كبيرة من الاستلاب باتت تجتاح المجتمعات الشرقية، والعربية منها بصورة أكبر، فقد فرضت العولمة حالة من الاجتياح الفكري والثقافي على الشعوب، فوجهت المحتوى الإعلامي والتكنولوجي والالكتروني لتمرير محتوى نمطي يسلب الأفراد هوياتهم التاريخية والقومية ويطرح وجهات نظر سياسية واجتماعية وفكرية وثقافية، وتصورات نقدية وفنية ونمط حياة وتقاليد اجتماعية في الملبس والمأكل، فضلا عن ذائقة موسيقية وفنية مغايرة وما إلى ذلك(١)، ولهذا فإن من يبدأ بالتحول نحو منطلقات جديدة لابد أن يشعر بحالة من الانعزال والاغتراب عن المحيط، وهو يمثل " نوعاً من الضياع الذاتي وسط المجتمع ، وفقدان الجوهر الانساني الاجتماعي، والانسحاق تحت وطأة أيديولوجيةٍ متناقضةٍ لواقع فردٍ ما. وهو وجود المرء في مجتمعه لكنه فيه غريب مُستَعْبَدٌ. وقد ادرك بعض المفكرين والادباء جسامة هذا الاغتراب فدعوا الى حرية الإنسان"(٢)، فيبدأ لدى الفرد بعد الاستلاب الإحساس بالوحدة، والشعور بانقطاع الإنسان عن الأشياء والأشخاص الذين يحيطون به، وبالسأم والوحشة بين الأهل والناس وأبناء المجتمع، وعدم الشعور بالتعاطف أو البهجة شعورًا صادقًا.

وليس بالضرورة أن يكون الاستلاب ناتج عن عولمة أو غزو ثقافي موجه، فالاستلاب قد يكون عادةً طوعياً يختارها الإنسان من ذات نفسه؛ لأسباب منها: شعوره بعدم الانسجام مع المجتمع والعجز عن الانتماء إليه، مخالفته للفكر والمعتقد، فكثيراً ما يشعر المغترب بالوحدة والفراغ ، كذلك بافتقاد الأمن وسوء العلاقات الاجتماعية(٣)، أما ما يؤدي إلى الاستلاب فهناك أسباب عديدة، "منها ما يدور بين الأمم من سباق مضطرد على التفوق الذي يأخذ مناحٍ عديدة، فالحروب التي قامت بها الإمبراطوريات العظمى على مرّ التاريخ أخذت شكل القوة العسكرية التي تهيمن من خلالها هذه الإمبراطوريات على سواها، ولكن مع استمرار الوجود البشري وتطور أشكال الهيمنة، ظهرت قوى أخرى للسيطرة على الآخر لا تلجأ الى استخدام القوة"(٤).

وإذا كانت مرتكزات الهوية الوطنية حاضرة واضحة في وجدان جيل من الشعراء، وأدبياتهم فإن جيلا آخر كانت افرازات الواقع والحروب والخسارات التي مرت على العرب كفيلة بتهديم صورة الهوية والانتماء لدى جماعة من الشعراء التي ولدت لهم سمة الانفصال والعدمية(٥).

(١) ينظر: آثار العولمة على البلدان المتنامية في المجالين الثقافي والتواصلي، ١١١-١١٢.
(٢) المعجم المفصل، د. أحمد التونجي، ١٤٤/١.
(٣) ينظر: دراسات سكيولوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب، القاهرة_ مصر، ط١، ٢٠٠٣: ٥٤.
(٤) ينظر: الاستلاب: ٩٦.
(٥) ينظر: الهوية في شعر الجيل التسعيني العراقي: ١٤.

ولربما التاريخ يعيد نفسه حيث كان الشاعر قديماً هو صوت القبيلة إنه الضمير المتكلم بلسان الجماعة ،فهو يُمجد مزاياها وأفعالها وحثها على التحرك كلما اقتضى الامر. أما حديثاً فقد ساد الشعور المرُّ بالضعف والاستلاب في بنية العقل العربي الذي أصبح ينظر الى الماضي بألم وحسرة ؛ فهذا الشعور تسبب بخلل وجودي واضح، أسلم كثيراً من الأدباء والفنانين الى حالة من العزلة ، والشعور بالخوف مما هو آتٍ، فكان الاغتراب حالة واقعية لا مفرَّ منها، كما تحول الى نوع من الصدام الحتمي، والثورة من خيبة الامل في كل شيء(١).

وتأسيسًا على ما تبين من تقديمات لمفهومي الاستلاب/ الاغتراب، نجد أنه قد أفلح- باعتباره حالة مميزة للإنسان في المجتمع الحديث – في أن يفرض نفسه على كثير من مجالات النشاط الثقافي والنفسي في الوقت الحالي، وأن يظهر بوصفه موضوعا أساسيا في الكتابات الأدبية والأعمال الفنية والبحوث الاجتماعية(٢).

ولقد أحس كثيرٌ من الشعراء بهذا النوع من الاستلاب، لذا كانت نصوصهم صرخات في وجه الوقت والواقع، في محاولة لتسويغ وجودهم بمعنى أنها نصوص تبتغي التوصيل والنقد والادانة والمصارحة والمكاشفة، لاريب في أنّ الاستلاب والعدمية بوصفهما انكساراً للذات وتهميشاً لإنسانيتها كانا يسلمان الشاعر إلى القلق المصيري الممزوج بضياع هويته، واستهلّ الشاعر أعماله الشعرية بفاتحة أشار فيها إلى طفولته قائلاً:

في طفولتي البعيدةِ يُشرقُ دائماً
تِلميذُ المدرسة الابتدائيةِ الرّهيبُ(٣)

ولقد طرّز الشاعر هذه الفاتحة بالإيحاءات المشحونة دلالةً، وبالتراكيب الموحية بالاستلاب المستوطن أعماق الشخوص في عالمه الشعري الذي نوشك أن نضع خطوتنا الأولى على طريقه، مُحاولين سَبْرَ أغواره.

تلفتنا الأوصاف التي استعان بها الشاعر لإكمال صور الشخوص، فتلميذ المدرسة الابتدائية يوصف بـ(الرهيب)، وتوصف المعلمة التي تحاوره بكونها (مدججة بالطفولةِ)، ثم يختار الشاعر صفة أخرى للتلميذ الرهيب، هي كونه مصاباً بداء التفكير، ثلاثُ وقفاتٍ تستفزّ المتلقي؛ إذ توحي بالعنف والرهبة والتوتر والخوف من مصير مجهول.

وهناك صفتان أخريان تشاركان الصفات السابقة تأزيم الأجواء وإشاعة التساؤلات المحيّرة هما: وصف السؤال الموجّه إلى الطالب، ووصف إجابته عن هذا السؤال، فالسؤال أكبر من عمر الطالب، والإجابة أكبر من عمر المعلمة.

سألته المعلمة المدججّةُ بالطفولةِ سؤالاً أكبرَ مِنْ عُمرِهِ
فأجابَ الصبيُّ المصابُ بداءِ التفكيرِ
بإجَابةٍ أكبرَ مِنْ عُمرهَا
(اسمك إيه يا حبيبي؟
-أحمد بخيت اسمك أحمد؟
-لا، أحمد بخيت

(١) ينظر: الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الانسان بين الحلم والواقع، حليم بركات: ٣٥ .

(٢) ينظر: ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا: ١٥.

(٣) المجموعة الشعرية، أحمد بخيت، المجلد الأول: ٧.

-نفسك تطلع زي زمايلك دكتور؟
-لا، نفسي أطلع نبي)
واحتاج التلميذُ عشرين عاماً كي يتّعلَّمَ ويَعْلَمَ
أَنَّ القاهرةَ لا تُنْجِبُ أنبياءَ!![1]

في آفاق هذا الفضاء المأزوم انطلق الشاعرُ، ليُثيرَ بذور إبداعه الشعريّ، ترافقه إشارتان، مكانهما مطلع الفاتحة وختامها، تضبطان إيقاع خطواته، هما: إشراقة ذكرى تلميذ المدرسة الابتدائية الموحيةِ بالأمل في مستقبلٍ زاهرٍ، وهذا الأمل يمكن أن يكونَ هو (الحلم)، والإشارة الأخرى هي الحقيقة المُرّة المُحبِطة التي تكمن مرارتها في كون مدينة القاهرة عاقراً... لا تنجب الأنبياء، وهذه الحقيقة يمكن أن تكون هي (الاستلاب).

ربما ستمثل هاتان الإشارتان طرفي الصراع الدائر في رحاب هذا العالم الشعري، والذي هو -أي الصراع- المحرك الفاعل في دنيانا كلها.

برزت (أنا) الشاعر في الضمائر وفي الأفعال المتصلة بها مثل قوله:

أنا ضيفٌ
على الدُّنيا
وأُوشِكُ أنْ أُودِّعَهَا
وُلِدْتُ
بِحُضنِ قافيةٍ
وأختمُ رحلتي معها
وغايةُ شَهوةِ الكلماتِ
أَنْ تغتالَ مُبدِعَهَا[2]

رحلةٌ لا شكّ في طول مسافاتها، ولكنّ الشاعر أوجز في الحديث عنها كثيراً، ولم يتوسَّع، مكتفياً برسم صورة المصير الذي يهدّد حياته، صادراً من حروفه التي راحت تقتات على خلاياه سائرةً به إلى الفناء.

وليس في النّص صورة للطرف الآخر من الثنائية.. الآخر الخارجي.. إنّها صورة الـ (أنا) الذي هو اللبنة الأولى في الهوية الاجتماعية، ولكنه (أنا) مسحوقٌ ومتعبٌ ومهدّدٌ بالاغتيال!!

إذ توصف الهوية في مفاهيم علم الاجتماع بأنها: "عملية تمييز الفرد لنفسه عن غيره أي تحديد حالته الشخصية"[3].

وبالرغم من التعب الذي أنهك جسده وسحقه، وبالرغم من كونه مهدداً بالاغتيال بقيت جذوة الحياة وقّادةً في روحه، وظلّ الأملُ في مستقبلٍ وضّاء عامراً فيها.

---

[1] المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ٤.
[2] المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ١١.
[3] معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي: ٢٠٦..

في هذه الإشارات إضاءاتٌ مفيدة تنبئ بملامحها لبنة من لبنات الهوية الاجتماعية، وتعطي صورة لما يمكن أن تكون عليه ملامح الهوية القومية في جانبها الوضّاء؛ بعيداً عن انتكاساتها وجروحها في أثناء احتكاكها بالعالم الخارجي؛ لأن الهوية في أبسط تعريفاتها هي "الحقيقة المطلقة في الأشياء والأحياء، المشتملة على الحقائق والصفات الجوهرية: هوية النفس الإنسانية، بطاقة الهوية منسوبة إلى هو"[١].

وتتوالى ملامح الـ(أنا)، فتزداد صورتها وضوحاً وجلاءً، نراها هنا ذاتاً، تنطوي على فوضى عارمةٍ، وقد تكون مؤشراً من مؤشرات الاستلاب، إذ يقول:

أنا قنينةُ الفُوضَى
ولا ترتيبَ
للصّعلوكْ
ولا أحد سيجعلني
أُقدِّمُ بيعةَ المملوكْ
حديثي
نصفُ سوقيّ
ولكنّ الجراحَ
ملوكْ[٢]

يحيط إطار هذه الصورة بعددٍ من الملامح المميزة لـ(الأنا) ميّزها الشاعر، فرسمها بألوان تزيدها بروزاً، أولها (الفوضى) والعبثية اللتان تملآنها، ولقد أوحى بفكرة (الامتلاء) حين شبّه ذاته بالقنينة، وثاني هذه الملامح (الصّعْلَكةُ) وما تنطوي عليه من دلالةٍ على الرفض والتمرّد، هذا التمرّد الذي يبرز بقوة في قول الشاعر:

ولا أحد سيجعلني
أُقدِّمُ بيعةَ المملوكْ

أما الملمح الثالث فهو (السُّوقيَّةُ) التي ميَّزها الشاعر من الدُّونيّة بميزتين، الأولى: كونها ليست كليةً، إذ إنّها (نصفُ) فحسبْ. والمزيّة الأخرى: كونها (سوقيَّة أحاديث)، وليست (سوقيَّة سلوك).

الفُوضى والعبثيةُ والصّعلكةُ والرفضُ والتمرّدُ وأساليبُ الخطاب المشوبةِ بالسوقية.. كل هذه الصفات تعيد لنا صوراً شتّى لفنّانين وأدباءَ، بعضهم فنّانين وأدباء كبار، تسكّعُوا في أجمل حواضر الدنيا، وخلّفُوا في متاحفها ومكتباتها أرقى آيات الفن والجمال والأدب.

ولعلّ الشاعر أراد هنا أن يوصل إلينا هذه الفكرة؛ ليرفع شأن الـ(أنا) التي بدتْ متواضعة في النص، وهذا ما تؤكده الخاتمة!!

إنّ لفظة (المملوك) التي وردت في النص تستلزم وجود (مليك) أو (مَلِك)، فجاء الشاعر بـ(ملوك)، مشيراً بها إلى الملامح السابقة لـ(أنا)؛ مدفوعاً بروح المكابرة والرفض، ليقول إنّ (أناه) المثخنة بالجراح تنطوي على قيمٍ عُليا وشمائلَ فاضلة.

---

[١] الرائد (معجم لغوي)، جبران مسعود: ٨٤٧.
[٢] المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ١٥.

وبرزت في النصوص السابقة صورة الـ(أنا) المفرد المؤطرة بإطارِ الهوية الاجتماعية التي تمثل المدخل إلى دراسة الهوية القومية؛ ثم تحولت إلى الـ(أنا) إلى (نحن) إحساساً وايماناً من الشاعر بأنّ لـ(أناه) أشباهاً كثيرين، يحملون ملامحها وصفاتها، فالهوية في ميدان علم الاجتماع "شيء قابل للنقاش تأتي إثر عمليات التفاعل الإنساني، وهي تستلزم عمل مقارنات بين الناس، كي تؤسس أوجه التشابه والاختلاف بينهم، فأولئك الذين يعتقدون وجود التشابه بينهم وبين الآخرين يشتركون في هوية، تتميز عن هوية الناس الذين يعتقدون أنّهم مختلفون، ولا يشتركون بذات الهوية"[١].

في وصف الشاعر للفضاء الذي شهد ولادته نجد (النيل) و(القرآن) و(الأجراس)[٢].. إنها أجراس الكنائس!! وهذه أجواء مصر، إذ يتطّهر المسلمون وغيرهم من أتباع الديانات السماوية بمياه النيل، وحيث يكون الصدق والنقاء علاقات الناس.

ستصبح الـ(أنا) (نحن)، وستكتسي الهوية الاجتماعية رداء الهوية القومية، وستصير الفضائل والقيم أكثر سطوعاً وشمولاً، فالأمر اليومي العابر والهيّن يصبح مطلقاً:

هنالك حيثُ يُفضي
العابرُ اليومي
للمطلقْ
ولا نحتاج للكلماتِ
والتنهيد
إذ نعشقْ
وحيثُ الجبهةُ السمراءُ
أفصحُ
عندما نَعْرَقْ[٣]

فالعشقُ بوصفه حالةً إنسانيةً راقيةً، بما ينطوي عليه من نزعة صوفية نجدهُ سمةً شاملةً وقَيْلاً اجتماعياً، والكَدْحُ والاجتهادُ يكشفانِ أصالةَ الشعب وصدقه.

ويُشير الشاعر إلى روح الرضا والرفعة السارية في حياة الجماعة التي ينتمي إليها، حيث تعيش تلك الجماعات حياتها بفاعليةٍ وعطاءٍ إنسانيٍّ، يتّسم بالوعي والسماحة دون أن تهمل أحلامها والآمال في تحقيقها، ودون أن يُكدِّر صفوَ حياتها قدَرُها الذي حكم عليها بالانزواء والتهميش:

هنالكَ
حيثُ تَشربُنا الحياةُ
فتنتشي وندوخْ
وحيثُ طفولةُ الأحلامِ
تبلغُ رشدَها

---

(١) سوثيولوجيا الثقافة والهوية، هرلمبس وهولبورن: ٩٣.
(٢) ينظر: المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ١٨.
(٣) المجموعة الشعرية: المجلد الأول: ١٩.

وتشيخْ
وحيثُ الناسُ يا ليلايَ
ليستْ تدخلُ التأريخْ[١]

هذه السجايا الإنسانية هي هوية المجتمع الذي يدرجُ الشاعر بين ظهرانيه.. "هي ثوابته التي تتجدّد ولا تتغيّر، تتجلّى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مع مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة.. إنّها كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميّز بها من غيره، وتتجدّد فاعليتها، ويتجلّى وجهُها، كلّما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب، دون أن تخفي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات"[٢].

وتبقى قيم الأمة وفضائلها الإنسانية النبيلة ثابتة تتجدد بدون تغيير برغم وعورة الطريق وعثراته:

هُنالكَ
حيثُ يَبْدُو العمرُ
سعياً لاهثاً
وشتاتْ
وتَبْدُو الذاتُ غائبةً
دفاعاً
عن وجودِ الذاتْ
هُنالكَ حيثُ عنفُ الموتِ
يجعلنا
هواةَ حياة[٣]

إنّ حبَّ الحياة يدفع الشعب للحرص على تلوينها بجمال الفضائل والقيم؛ لتصبح حياةً تستحقّ التضحية والعطاء.

وبوصف الشاعر صوتاً ناطقاً بلسان شعبٍ وأمّة لها بصمةٌ وضّاءةٌ في سِفْرِ التاريخ راح يُسطّرُ شواهِدَ على حبِّ الحياةِ والسعي إلى الارتقاء بها إلى مراقي الإنسانية:

خُطايَ
سَجينةُ الصوتِ
الأجشّ
تُراوغُ السَّجّانْ
تُراقبُ ساعةَ الشمسِ
التي تنمو
على الجدرانْ
وعند خروجها

---

[١] المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ٢١.
[٢] مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، محمد عمارة: ٦.
[٣] المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ٢٢.

ترنو إليه
فتلمح الإنسانْ[1]

تفترض لفظة الاستيلاب أو دلالتُهُ وجود ذاتين اثنتين: السالِبُ والمسلوبُ منه، أو المُستَلِبُ والمستَلَبُ منهُ. ومن خلال النصوص السابقة ظهر الشاعر حاملاً صفة المسلوب منه، سواءً أكان فرداً تمثّله الـ (أنا) أم جماعةً؛ تمثلها الـ (نحن)، فكان صوتَ هذه الجماعة، وتحدّث باسمها. أما السالب فهو (الآخر) الذي كان يمثله في النصوص الدهر، أو قوةً غيبيةً قاهرة.

وسنجد في نصوص الشاعر ضميراً آخرَ ذا صلة بالـ (أنا) والـ (نحن) هو الضمير (هم) الذي يشير إلى جماعة الغائبين الذين هم في الأصل (نحن) بعد أن يغادروا مسرح الأحداث.

ويستمر الشاعر في أداء مهمته النبيلة صوتاً عالياً، يفصح عن أحوال الجماهير:

أنا
مِنْ هؤلاء النّاسِ
أبناءِ الترابِ الحيّ
وأبناء العذابِ الفرضِ
أبناء الأسى الجبريّ
يمُرُّ السهمُ
في دَمِهِمْ
فيرتدُّ النزيفُ
إليّ[2]

يبدو الشاعر هنا أكثر قرباً من الجموع ممّا سبق؛ إذ تنمحي الحدود الفاصلة بين الـ (أنا) والـ (نحن) و(هم)، فأيُّ حجرٍ يقذفهُ الآخر سيصيب الذوات الثلاث سويةً.

أما الآخر فهو القدَرُ.. القَدَرُ المفروض الذي أصدر حكمه على هذه الجموع بـ (العذاب الفرض) و(الأسى الجبريّ).

ويخصّص الشاعر مساحةً للحديث عن الجماهير التي صار هو لسانها الذي يفصح عن آلامها وآمالها.. الجماهير التي يشار إليها بالضميرين (نحن) و(هم) فيقول:

همُ الفقراءُ
ملحُ الأرضِ
قلبُ العالم الدافئ
خُطاهُمْ
في مدائِنِهِ المُدانةِ
توبةُ الخاطئ
فهل تتنكّر الأمواجُ

---

(1) المجموعة الشعرية: ٢٥.
(2) المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ٤١.

يا ليلايَ
للشاطئ[١]

في هذا النص ثراءٌ فنيّ يفرض على الباحث إيلاءهُ التفاتاً خاصاً ومميزاً، يتجاوز فيه وصفَ فكرته، ويخرجُ فيه عن منهجه المعهود في التعامل مع نصوص الشاعر، فيغادر دور المتلقي ويمارس دور الناقد، فيلتفت إلى المفردات ودلالتها، وإلى التجربة الشعورية للمبدع في أثناء صياغة النص.

إنّ أبرز ما يلفتنا في النص هو التجربة الشعورية الوهّاجة التي تفرض نفسها على المتلقي وعلى الناقد.. وتدفعه إلى تمثّلِها.

والتجربة الشعورية هي انعكاسُ الحياة على وجدان الفرد.. أي انعكاس يمسُّ الروح أو يحرك العاطفة. إنّها صورة الإنسان في لحظة تضجّ بالتوتر؛ لأنّ "الشاعر يعبّر في تجربته عمّا في نفسه من صراعٍ داخليّ سواءَ أكان تعبيراً عن حالة من حالات نفسه هو، أو عن موقفٍ إنساني عامٍ تمثّله"[٢].

وانعكست الحياة بما فيها من صراعٍ وتفاعلات على وُجدان الشاعر، فمسّت روحه وحرّكت عاطفته بعنف جليّ، فبدا مُنحازاً انحيازاً تاماً إلى المسحوقين.. إلى الفقراء الذين استحالت أسمائهم في النص حريراً وحللاً زاهيةً، فبدَوْا فيها (قلب العالم الدافئ).. قلبه النابض الذي يحيل الخطيئةَ توبةً.

في النص شاهدٌ حيٌّ على أن شعرية المفردة لا تكمن في دلالتها، إنما في دورها في السياق الذي يحتويها، فـ (ملْحُ الأرضِ) الذي يُوحي بـ (السِّباخ) وبَوَار الأرض يصبح في السياق، وبتأثير عاطفة الشاعر مؤشراً مضيئاً، يدلّ على النقاء والبساطة النبيلة.. هذه البساطة التي امتلكت لُبَّ الشاعر، فجعلت رافضاً مظاهر البذخ والإسراف والقوة، منصرفاً إلى مواطن البساطة في القرى والأرياف حيث الفقر والنقاء والبراءة.

إنّ المدن في نظر الشاعر (مدائنٌ مُدَانة)، وكأن قوله: (مدائنهُ المدانة) إعادة صياغةٍ، أو إعادةٌ لصورة المدينة في قصائد بدر شاكر السياب الذي يقول في قصيدته جيكور والمدينة:

وتلتَفُّ حولي دروبُ المدينة
حبالاً من الطّينِ يمضغن قلبي
ويعطين عن جمرةٍ فيه طينهْ
حبالاً من النّارِ يجلدن عُريَ الحقول الحزينهْ
ويُحرِقْنَ جيكور في قاع روحي
ويزرعْنَ فيها رمادَ الضّغينهْ[٣]

وفي النص فيضُ من العاطفة دفّاق، يحسّ به المتلقّي مؤطّراً بإطارٍ سرديّ، مُتّخذاً شكل حوارٍ يجي بين الشاعر وامرأةٍ قريبةٍ من نفسه قرباً، يجعله يتلطّف في خطابها.. إنّها (ليلى)!! الاسم الذي يكثر ترديده في الديوان، والتي يناديها تحبُّباً (ليلايَ).. وفي هذه المناجاة من الدماثة والرِّقّة ما يكفل انشداد المتلقّي إلى النص بطواعيةٍ تامّة.

---

(١) المصدر نفسه: ٤٢.
(٢) النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال: ٣٦٣.
(٣) ديوان بدر شاكر السيّاب: ٤١٤.

وقد سبق لنا المرور بنصٍ، يشبه هذا النّص عاطفةً وشاعريةً وفنّاً.. فيه تحبُّب ولطف في مناجاة (ليلى)، بوصفها ذاتاً، تُضفي سِمة الواقعية والحيويّة على النص:

وحيثُ طفولةُ الأحلامِ
تبلغُ رشدَها
وتشيخْ
وحيثُ الناسُ
يا ليلايَ
ليستْ تدخلُ التأريخْ(١)

ولم يكتفِ الشاعر بالوصف السلبيّ للمدن، حين وصفها بـ(المدائن المدانة)، إنّما قدّم لائحةً من الشواهد التي تُعزِّز هذه التهمة، وتؤكد الصورة المقيتة للمدينة القاسية التي تحجّرت قلوبُ ساكنيها:

رأيت شجار أرملة
تغالط بائع الألبان
وثقب ردائها المبتل
يجلد
جارها الشهوان
وطفلاً عاري الفخذين
يحبو نحوها
بأمان(٢)

تفتقر إلى الرحمة والطيبة والعفاف... الأرملة التي يجب أن تُحاط بالعناية والرعاية تصبح نهباً، يتنازعه المستغلون وذوو الشهوات.

تلك مدنٌ تضجُّ بصور الاستلاب المزري، يرصد الشاعر فيها أنموذجاً للفرد الذي فقد الحسّ الإنساني:

وكهلاً
يحرسُ الإعياء
في ركنٍ من المقهى
وكلُّ هزائمِ
الأيام
خلف الضحكة
البَلْهَا
يرى تنورةً
فيُطِيلُ عُمرَ النظرة الولهى!!(٣)

(١) المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ٢١.
(٢) المصدر نفسه: ٤٥.
(٣) المجموعة الشعرية، المجلد الأول : ٤٦.

حيث تتفاقم المأساة وتزداد المعاناة وطأةً على النفوس يُقابل بعض الناس الأزمات الخانقة بالسخرية المُرّة، ويجعلون المفارقة وسيلة للتنفيس عن المرارة التي تمرّ في دواخلهم، وإن أصدق وصف لتأريخ المفارقة في الأدب أنه "تأريخ الوعي الكوميدي والمأساوي معاً"[١].

ويرسم الشاعر عدداً من صور المفارقة؛ ليجعلها شواهدَ على الخلل في مسارات الحياة، ومرارة المعاناة التي يحسّ بوطأتها على حياه مواطنه:

رأيتُ زواجَ
عصفور الصباحِ
بطلقةِ الصيّادْ
ونابٍ صادقاً
كالموتِ
يعزفُ كذبةَ الميلادْ
وحقلاً بامتداد العُمرِ
يشكرُ
مِنْجلَ الحصّادْ[٢]

هذه هي المرة الأولى التي يبدو فيها (الآخر) المُستلِب شخصاً ذا كيانٍ محسوس، وليس قدراً أم قوةً غيبيةً.. إنّه (الصيّاد) و(عازف النّاي المخادعُ) و(الحصّاد)!!

تقف (أنا) الشاعر -وخلفها الجموع- التي تمثّلها "في مواجهة الآخر الذي تجد نفسها في تعارضٍ معه باختلاف دلالاته ((العالم، الواقع، الخارج، السلطة، التشتّت، التخلّف، الاستلاب، التقاليد، الظلم، والقهر...)) أي كل ما هو شرّ وسيءٌ وقبيح ومباين لإنسانية الإنسان فرداً أو مجموعًا، ذكراً أو أنثى، وليس لها إلّا أن تدينه وتتحداه وترفضه وتنأى عنه وتتمرّد عليه"[٣].

(١) المفارقة، د. سي. ميويك: ١٢٦.
(٢) المجموعة الشعرية، المجلد الأول: ٧٠.
(٣) أوهاج الحداثة، د. نعيم اليافي: ١٨٥.

ومن نماذج المفارقة الطافحة مرارةً وايحاءً بالاستلاب هذه الصورة:

صديقي
لاعبُ الشِطرنج
يرشقُ في دمي قولَهْ
لنا جيشٌ مِن خشَبٍ
هُنا
سنؤسِّسُ الدولَةْ
وقبلَ النقلةِ الأولى
كِلانا
يخسرُ الجولةْ(١)

يمكن أن يقال الكثير بشان هذا النص، غير إيحائه بالمرارة والاستلاب!!

في هذا النّص رؤيةٌ تتعالى على الحقد العفويّ العاجل على الآخر المُستلِب.. إنّ فيه إحساساً بوطأة الواقع وقسوة الخارج وحدَّة التشتّت وتخلّف التقاليد.. فيه رؤية عميقة وفاحصة ودقيقة... فيه نقد قاسٍ للذات، يسعى إلى انتشالها من قيود التخلف والانكسار.

ويمكن أنْ تكون لعبة الشطرنج إشارة إلى صراعات الحضارات والأمم، وتأسيس الدولة وخسران الجولة إشارتين إلى سعي الأمة إلى امتلاك ذاتها وإلى نتيجة هذا السعي المحبطة.

وفي النص وعيٌ عميقٌ بمرارة الحاضر.. وعيٌ يدفع إلى التحوّل و"التحوّل إحدى صور الفيض، يبدأ منذ أن تأخذ الـ(أنا) بتلمُّس طريقها لإعادة خلق الكون والإنسان وصياغتهما على وفق ما تتصوَّر صياغةً مباينةً لما كان عليه قبل التوتر، أي منذ أن تتقدم للالتحام بالآخر بعد انسحابها عنه، وهو حالة من حالات الوعي وجذوة من قبساته، يختلف نوعا ودرجة باختلافه، أو يضعف بقوته وضعفه"(٢).

إذاً فالوعي هو الشرط الأول لتحقُّق الهوية، وهو شرط تتلوه شروط، منها الاستجابة والفعل والرؤية....

النتائج

- كشف البحث عن أهمية تأثير العوامل الثقافية والاجتماعية في تكوين هوية الكاتب أحمد بخيت.
- وفي صور الاستلاب التي عرضناها مستقاةً من مجموعة الشاعر أحمد بخيت تبدو جحافل من الكادحين البؤساء أو المسحوقين، بعض منها يشقّ طريقه في دروب الحياة القاسية، وهو ينوء تحت ثِقل معاناته نازفَ الجِراح متعثر الخُطى، وبعضها الآخر متهاوٍ على جنبات الطريق، يلتقط أنفاسه، متردداً بين المكث ومواصلة المسير.
- ورصدنا صورتين من صور الاستلاب جاءتا حسيّتين، تغلّبت فيهما الغرائز وهينت على سلوك الفرد وفكره، فعطّلت في ذاته المروءة والرجولة الحقّة والعطاء الخلّاق، إحداهما صورة الجار الذي راح يتلذّذ بالنظر إلى جسد جارته الأرملة الذي يكشف عنه ثقبٌ في ردائها

(١) المجموعة الشعرية، المجلد الأول:٨٤.
(٢) أوهاج الحداثة: ١٩٠.

البالي، والأخرى صورة الكهل البليد الذي لا يكترث بما حوله من مظاهر الهزيمة والخراب، ويكتفي بجلوسٍ خاملٍ في مقهى، يزجي خلاله الوقت بالنظر الشيّق إلى أجساد عابرات السبيل.

- إطار لـ(الأنا) ميّزها الشاعر، فرسمها بألوان تزيدها بروزاً، أولها (الفوضى) والعبثية اللتان تملآنها، ولقد أوحى بفكرة (الامتلاء) حين شبّه ذاته بالقنينة، وثاني هذه الملامح (الصّعْلَكةُ) وما تنطوي عليه من دلالةٍ على الرفض والتمرّد.
- هناك صفتان تلازمان أحمد، هما تأزيم الأجواء وإشاعة التساؤلات المحيّرة هما: وصف السؤال الموجّه إلى الطالب، ووصف إجابته عن هذا السؤال، فالسؤال أكبر من عمر الطالب، والإجابة أكبر من عمر المعلمة

ثبت المصادر والمراجع

- ❖ آثار العولمة على البلدان المتنامية في المجالين الثقافي والتواصلي، د. ناصر الدين الأسد، بحث منشور في سلسلة الدورات الصادرة عن مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، فبراير، ٢٠٠٢م.
- ❖ الاستلاب، فالح عبد الجبار، دار الفارابي للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٨.
- ❖ الاعمال الشعرية، أحمد بخيت، المجلد الأول، دار كليم للنشر والتوزيع،، ط١،القاهرة، ٢٠١٢م.
- ❖ الأعمال الشعرية، أحمد بخيت، المجلد الثاني، دار كليم للنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ❖ الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الانسان بين الحلم والواقع، حليم بركات: ٣٥ .
- ❖ أوهاج الحداثة، دراسة في القصيدة العربية الحديثة، نعيم اليافي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، ١٩٩٣ .
- ❖ بلاغة المكان، قراءةٌ في مكانية النص الشعريّ، فتحية كحلوش، مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠٠٧.
- ❖ دراسات سكيولوجية الاغتراب، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠٠٣.
- ❖ الرائد معجم لغوي، جبران مسعود، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م.
- ❖ سوثيولوجيا الثقافة والهوية، هارلمبس وهولبورن، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر، ط١، سوريا.

❖ ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، حمة دحماني، جامعة منتوري، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، إشراف عبد الله حمادي، الجائر، ٢٠٠٥.
❖ مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، محمد عمارة، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠١٣م.
❖ المعجم المفصل، د. أحمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩.
❖ معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع – مفاتيح اصطلاحية، ميغان موريس، تر: سعي الغاني، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠.
❖ المفارقة، د. سي. ميويك، ترجمة د. عبدالواحد لؤلؤة، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢م.
❖ النقد الأدبي الحديث، قضاياه ومناهجه، صالح هويدي، منشورات جامعة السابع من إبريل، ط١، ١٤٢٦هـ.
❖ الهوية في شعر الجيل التسعيني العراقي، رائد حاكم شرار الكعبي، جامعة بابل، كلية التربية للعلوم الإنسانية، رسالة ماجستير، ٢٠١٧.